الفصل الأول

القرآن مفجر علوم اللغة فى التراث

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أم لكم كتاب فيه تدرسون.

إن لكم فيه لما تخيرون.(١)

صدق الله العظيم

الكتب المقدسة تبذل حولها طاقات الدارسين وبفضلها تستخرج مكنونات العقول وتتعدد المباحث، وتتفجر العلوم وتتنوع وعلى سبيل المثال كان كتاب الفيدا (Rig Vida)(٢) المقدس عند الهنود سبباً فى سبقهم فى الدراسات اللغوية بصفة عامة، فقد شففهم بتحليل لغتهم السنسكريتية وصورها فصنفوا فى الدراسات الصوتية مباحث جليلة، وخلفوا نحواً وصفياً للغة السنسكريتية بالغ الدقة(٣)، ويعد بانينى(٤) من خيرة النحاة الوصفيين القدماء.

---

(١) سورة القلم، الآيتان ٣٧، ٣٨.

(٢) طقوس دينية عند الهنود يطلق عليها إسم (Rig Vida) أنظر : Bloomfielb language P.10. .

(٣) السابق، ص١١.

(٤) بانينى "Pànini" نحوى هندى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد (حوالى ٣٥٠ إلى ٢٥٠ ق.م) وقد وصف القوانين الصوتية والنحوية للغة السنسكريتية وصفاً على درجة كبيرة من الدقة.

Bloomfield : Language P 11.

وقد قام اللغوى الهندى سيد شوارفارما بدراسة للآراء الصوتية لنحاة الهند القدماء، نشرت بالإنجليزية سنة ١٩٢٩ تحت عنوان : دراسات نقدية فى الملاحظات الصوتية للنحاة الهنود.

Siddheshwar Varma : Critical Studies in the Phonetic observations of the Indian. Grammarians, the Royal Asiatic Society, London 1929 (Printed by Billing and Sons Ltd. Guild ford and Easher.

=

كما كان ذلك عندهم أيضاً سبباً فيما أثر عنهم من خط دقيق (الدافنجارى) Davenagri Seript .

= وقد نشر هويتنى "D.whitney" أعمالا ترجمها عن الدراسات اللغوية والصوتية من كتابات الهنود. ونشرها فى مجلة الجمعية الأمريكية للدراسات الشرقية.

وباللغة العربية عن أثر الهنود فى الدراسات اللغوية إقرأ :

- البحث اللغوى عند الهنود وأثره على اللغويين العرب تأليف الدكتور أحمد مختار عمر.
- وإقرأ علم اللغة مقدمة للقارئ العربى، دكتور محمود السمران، من ص٣٤٥.
- وبدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب، د. السيد محمد يوسف الهندى، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مايو ١٩٥٠.
- وعلاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجرى، السابق عدد مايو ١٩٥٣.

وأنظر : First Lesaons in Sanskrit Grammar, J.R Ballantyne 1826.

Grammatical Method in Panini, B. Shefts, New York 1961.

obeikandl.com

القرآن الكريم مفجر علوم القرآن

وقد كان القرآن الكريم صاحب الفضل فى نشأة الدراسات اللغوية فى التراث الإسلامى.

فالقرآن نص لغوى اقتضت العناية به الخوض فى دراسات لغوية وأدبية تطورت بمرور الزمن إلى ما نراها عليه الآن.(١)

فقد خاف علماء المسلمين على القرآن الكريم من أن يصيبه ما أصاب الألسنة من لحن أو تحريف بعد أن تعددت ألسنة الداخلين فى الإسلام واختلطت وتفشت ظواهر اللحن.(٢)

---

(١) أنظر : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب تأليف أوليرى. وإقرأ مقدمة المترجم د. تمام حسان.

ومن المعلوم بداهة أن النصوص القرآنية اشتملت على قوانين تشريع ونظم حكم وسياسة ووعد ووعيد وأخبار أمم سلفت وأحاديث عن الغيب والعالم العلوى، ومبادئ عدل وحق وهداية. وحول كل تلك المعانى اتجهت طوائف من العلماء إلى البحث والدرس فى القرآن. ونمت هذه المباحث وصارت مباحث كل طائفة من هؤلاء علوماً لها استقلالها.

(٢) مر الشعبى يوماً بناس يتدارسون النحو فقال : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده. أنظر : البيان والتبيين للجاحظ، ج٢، ص٦٤.

وقد ذكر الجاحظ فى كتابه هذا أمثلة متنوعة للحن يتبين منها أن اللحن كان قد تفشى على كل المستويات اللغوية. إقرأ أمثلة للحن وأنواعاً من اللكنات فى صفحات ٨٦، ٨٧، ٨٨ السابق.

وقد علل الجاحظ لهذه الظواهر تعليلا مبعثه الملاحظة اللغوية من واقع مجتمعه والتفاعل اللغوى فيه. ومما قاله : «اللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها». وفى هذا القول ما يدفع القضية لأن تثار على مستوى مباحث الصراع اللغوى.

ويرى الدكتور عبده الراجحى : أن محاولة فهم النص القرآنى هى التى تفسر نشأة النحو وبخاصة على أول صورة وصل إلينا، لأن محاولة الفهم تجعل الباحث «يقصد إلى البحث عن كل ما يفيد فى استنطاق النص، وفى معرفة ما يؤديه التركيب القرآنى على وجه الخصوص باعتباره أعلى ما فى العربية من بيان، ومن هناك كان هذا النشاط النحوى القديم على الوجه الذى نعرفه من كثرة علمائه وتفرع مذاهبه ووفرة مادته».

(النحو العربى والدرس الحديث بحث فى المنهج، ص١١).

فقد كان الناطقون بالعربية من الأمم الأخرى يرتضخون لكناتهم فى نطقهم، كما كانت لعاداتهم النطقية الأصلية سلطانها على ألسنتهم.

أضف إلى ذلك أن جهود علماء المسلمين توزعت حول القرآن الكريم وفهمه.(١)

واتجهت كل جماعة وجهة فى تفقهه فباتت طائفة عاكفة على تصحيح متنه فى عناية فائقة وإتقان بارع فى الأخذ والأداء والتلقين والتلقى.(٢)

وبرع من هؤلاء فى الدراسات اللغوية جم غفير بفضلهم نشأ علم العربية.(٣)

---

(١) إقرأ ما كتبه د. فيليب حتى وبخاصة من ص٣ من كتابه.

Ph. Hitti, The Arabs; A Short History.

(٢) من يتدبر القراءات القرآنية يجد أن المغايرة قد تكون :

أ) إما تغير فى الحركات.

ب) أو تغير فى الأبنية والصيغة.

جـ) أو تغير فى الأصوات.

د) أو تغير فى الألفاظ.

وكلها كما ترى من مباحث الدراسات اللغوية، ارجع فى ذلك مثلا :

ـ لكتاب السبعة في القراءات لإبن مجاهد.

ـ وكتاب مختصر فى شواذ القراءات من كتاب البديع لإبن خالويه.

ـ كتاب الحجة فى القراءات السبع للإمام إبن خالويه أيضاً.. وغير ذلك كثير.

(٣) سميت الدراسات اللغوية التى اهتدى إليها العلماء فى بادئ أمرهم بعلم العربية : قال إبن سلام فى الطبقات : «وكان أول من استن العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبوالأسود الدؤلى».

وقال ابن قتيبة في المعارف «أول من وضع العربية أبو الأسود».

وقال إبن حجر العسقلانى فى الإصابة «أول من ضبط المصحف ووضع العربية أبو الأسود».

وروى ابن لهيعة عن أبى النضر قال : «كان عبدالرحمن بن هرمز أول من وضع العربية».

وعلى أيدى طبقاتهم اكتمل، ومن بينهم على سبيل التمثيل :

* أبو الأسود الدؤلى «ظالم بن عمر، من الدُئل - بطن من كنانة، ورد البصرة من عهد عمر بن الخطاب، وجاء عنه أنه كان أعلم عصره بكلام العرب، وهو أول من ضبط المصحف بالشكل، وقد أخذ عنه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وغيرهما، (وتوفى سنة ٦٩هـ)(١).

* وزِر بن حبيش الأسدى الكوفى (المتوفى سنة ٨٢هـ)(٢).

فقد أخذ القراءة عن عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود وأخذها عنه عاصم بن أبى النجود، وسليمان الأعمش. ويحيى بن وثاب، وغيرهم(٣).

وكان عبدالله بن مسعود يسأله عن اللغة - وقال عنه عاصم بن أبى النجود «ما رأيت أقرأ من زِر». وقد كان عاصم بن أبى النجود من شيوخ الإقراء، وروى عنه أعلام القراءة واللغة حروف من القرآن : كأبى عمرو بن

---

(١) أنظر فى ترجمته طبقات النحويين واللغويين للزبيدى، ومراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى.
وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لعبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى.
ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء لإبن الأنبارى.
وأنباه الرواة على أنابه النحاة للوزير جمال الدين على بن يوسف القفطى.
ومعجم الأدباء لياقوت.
وخزانة الأدب الشاهد الأربعين.
وأمالى المرتضى المجلس العشرين.
ودائرة المعارف الإسلامية.

(٢) جاء فى القاموس المحيط، ج٢، ص٣٨ زر بن حبيش تابعى بكسر الزاى، وذو الذرين سفيان بن ملجم أو ملجح القروى، وإنه لزر من أزرارها أى حسن الرعية لها، وزر الدين قوامه.

(٣) إقرأ غاية النهاية لإبن الجزرى، ج١، ص٤١٣.

العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدى – وحمزة بن حبيب الزيات(١).

ونصر بن عاصم أحد القراء والفصحاء وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء.

رُوِىَ عن عمرو بن دينار أنه قال : «اجتمعت أنا والزهرى ونصر بن عاصم فتكلم نصر فقال الزهرى : «إنه ليفلق بالعربية تفليقاً»(٢).

* وأما أبو عمرو بن العلاء، فهو علم من الأعلام فى القرآن واللغة والنحو، أخذ عنه يونس بن حبيب. والرواية عنه فى القراءة والنحو واللغة كثيرة.(٣)

* وعن الكسائى : فقد جاء فى النشر لإبن الجزرى عن ابن الأنبارى أن على بن حمزة الكسائى، كان أوحد الناس فى القرآن وأن الناس كانوا يكثرون عليه فيجمعهم فى مجلس ويجلس على الكرسى ويتلو القرآن وهم يسمعون ويضبطون عنه»(٤).

فقد كانت القراءة علمه وصناعته، ولم يكن أضبط ولا أقوم بها منه(٥).

قال عنه خلف بن هشام : كنت أحضر قراءته والناس ينقطون مصاحفهم على قراءته.

---

(١) السابق.

(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافى، ص١٦.

(٣) السابق، ص٢٢.

(٤) النشر فى القراءات العشر لإبن الجزرى، ج١، ص١٧٣.

(٥) غاية النهاية لإبن الجزرى، ج١، ص٥٣٨.

فمن ملاحظة القراءة والنقط ومن الربط بين القراءة وحركات آخر الكلم اهتدوا إلى علل هذه الحركات - اهتدى إلى ذلك طائفة من العلماء وهم بصدد المحافظة على متن الكتاب الكريم يتقنون ترتيله ومخارج حروفه ويعتنون بضبطه فهداهم هذا إلى علوم كان من أولها علم العربية(١).

وجعلوا هذه العلوم فروعاً وأموراً وأنواعاً وقد ذكر السيوطى فى كتابه الإتقان فى علوم القرآن خمسين نوعاً نشير إلى بعضها(٢) :

* **الأول** منها : مواطن النزول، وأوقاته، ووقائعه وفى ذلك إثنا عشر.

* **والأمر الثانى** : السند وهو ستة أنواع...

* **والأمر الثالث** : وهو الأداء وينقسم إلى ستة أنواع أيضاً وهى :

١ - الابتداء. ٢ - الوقف

٣ - الإمالة. ٤ - المـد.

٥ - تخفيف الهمز. ٦ - الإدغام.

وتلك من مباحث الدراسات الصوتية كما هو واضح.

* **والأمر الرابع** : وهو الألفاظ، وينقسم إلى سبعة أنواع :

١ - الغريب. ٢ - المعرب. ٣ - المجاز.

٤ - المشترك. ٥ - المترادف. ٦ - الاستعارة.

٧ - التشبيه.

---

(٦) أى النحو أو الإعراب على خلاف فى أول من وضعه.

(١) الإتقان فى علوم القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطى، ص ٤-٥.

ومن هذه ما هو من مباحث علم المعنى (Semantics) ومنها ما هو من دراسة المعجم (Lexicon). ومنها ما يتصل بدراسة تاريخ الكلمات أو الاشتقاق (Etymology) .

* **والأمر الخامس** : يتصل بالمعانى المتعلقة بالأحكام وهو أربعة عشر نوعاً.

* أما **الأمر السادس** : المعانى المتعلقة بالألفاظ وهو خمسة أنواع :

١ – الفصل. ٢ – الوصل. ٣ – الإيجاز.

٤ – الإطناب. ٥ – القصر.

ومن هذه ما يدخل ضمن مباحث علم التراكيب (Syntax) ومنها ما يدخل ضمن مباحث علم المعنى أو الدلالة.

وهكذا اهتدى العلماء وهم بصدد ترتيل القرآن الكريم والاعتناء بتلاوته إلى الخوض فى مباحث ودراسات تطورت فيما بعد وصارت علوماً مختلفة تخدم مجالات متنوعة فى ميادين البحث اللغوى. ومن أبرزها ما أطلق عليه إسم علم العربية وهو ما عرف فيما بعد بعلم النحو(١).

ولا يغيب عن بالنا ما عرف عن العرب من حس لغوى دقيق فى الإعراب ومن عناية شديدة به إلى الحد الذى عدوا فيه اللحن هجنة على الشريف، بل إنهم ظنوه ماحقا للأزراق «دخل أعرابى السوق فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله!! يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح»(٢).

---

(١) على أن يدخل ضمن مفهوم النحو الدراسات الصرفية والصوتية أى يصير مساوياً لما أطلقوا عليه إسم الغرماطيقى أو الجراماطيقا.

(٢) عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان : الإعراب واللحن) ج٢، ص١٥٨، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص١٧. وجاء فى البيان والتبيين ص١١٣ قال أيوب السختيانى : تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف.

وكان الرجل منهم إذا تكلم ولحن سقط من أعينهم. وجاء عن أبى الأسود الدؤلى قوله : «إنى لأجد للحن غمرا كغمر اللحن» (أى ريحانتنا). كل ذلك كان وراء ضبط أواخر الكلمات بنقط يكتبونها عند آخر الكلمات تدل على حركاتها(١) أى إعراب القرآن الكريم، وكانت تلك أولى الخطوات فى تلك الطريق الطويلة.

---

(١) مرت هذه العملية بمراحل يدأت كما تقول الروايات بأن زيادا سأل أبا الأسود أن يضبط المصحف فأبى ثم عاد فقبل وقال : ابغنى كاتباً لقناً يفعل ما أقول. فتخير له كتاباً وجعل يختبر الكتاب حتى رضى من رضيه منهم فقال له : خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد فإذا رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه، وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين يدى الحرف فإذا تبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، وأخذ يقرأ القرآن بالتأنى والكاتب يضع النقط وكلما أتم الكاتب صحيفة أعاد أبو الأسود نظره عليها واستمر على ذلك حتى أعرب المصحف كله، فأخذ الناس هذه الطريقة عنه وشكلوا بها الحروف.. أما الحرف الساكن فكانوا لا يضعون عليه شيئاً وإذا كان الحرف منوناً يضعون نقطتين فوقه أو أسفله أو عن شماله واحدة دلالة على الحركة والأخرى دلالة على التنوين، فإذا كان بعد التنوين حرف من أحرف الحلق وضعوهما إحداهما فوق الأخرى علامة على أن النون مدغمة أو خفية.

(أنظر : تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية لحفنى ناصف، ص ٦٧-٦٨).

وسموا هذا نقط المصحف، ثم سموا النقط شكلا لأنها تدل على شكل الحرف وصورته، فوضع النقط قصر الحرف على شكل وهذا هو السبب فى تسمية هذه العلامات شكلا. وتفنن الناس بعد أبى الأسود فى شكل النقط فمنهم من جعلها مربعة ومنهم من جعلها مدورة مسدودة الوسط ومنهم من جعلها مدورة خالية الوسط. واخترع أهل المدينة للحرف المشدد علامة على شكل قوس طرفاه لأعلى.. (المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩).

وهذا غير الإعجام. والإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس، والمشهور أن اختراع الإعجام كان فى زمن عبدالملك بن مروان، والتحقيق أنه كان قبل الإسلام كما يذهب إلي ذلك الأستاذ حفنى ناصف (إقرأ السابق من ص ٧٠ إلى ص ٧٥).

ويقول الأستاذ إبراهيم مصطفى : «ولما لم يكن هذا الضبط كافياً لحسن التلاوة وعاصماً من الخطأ فى القرآن احتيج إلى تمييز آخر قام به «نصر بن عاصم الليثى» أحد تلاميذ أبى الأسود بطلب من الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق. وكان عمل نصر هو التمييز بين الحروف المتشابهة فى الرسم باختصاص كل واحد منها بنوع من النقط كالباء والتاء والثاء.. ومن هنا غير ترتيب الحروف الأبجدية إلى ترتيبها الهجائى المتعارف وهو (أ. ب. ت. ث ....) وسمى نصر نقطه إعجاماً كما سمى نقط أبى الأسود بالشكل الذى وضعه إعراباً. ثم جاء الخليل بن أحمد واستبقي نقط نصر وألغى نقط أبى الأسود وأحل محله الشكل المعروف الآن. =

وكان عمل أبى الأسود الدؤلى وغيره من النحاة فى بادئ الأمر أن يعربوا المصحف أى يضبطوا أواخر كلماته بالنقط، ويرسلون المصاحف فى الناس يهتدون فى القراءة بها وتكون لهم إماماً.

وما أن اهتدوا إلى قواعد الإعراب حتى كانوا قد أحاطوا بها، ودونوها وجمعها سيبويه فى كتابه الذى لم يزل من بعده إمام النحاة(١).

وإن اختلف بعض الباحثين حول أصالة كتاب سيبويه.

أمبتكر هو أم منقول ؟ فتلك قضية كبرى تفرد لها الصفحات القادمة.

= وجعله حروفاً مصغرة أو أبعاض حروف كما سموه؛ قالوا : وقد اتخذ ذلك عن اليونانية وكان قد قرأها. (ص٧٣، مجلة كلية الآداب السابق).

وإقرأ : المقنع فى رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط تأليف الإمام أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى المتوفى عام ٤٤٤هـ، تحقيق محمد الصادق قمحاوى، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

(١) إقرأ صفحات ٩، ١٠، ١١ من إحياء النحو للأستاذ إبراهيم مصطفى.

obeikandl.com

أصالة كتاب سيبويه

اختلف بعض الباحثين المحدثين حول أصالة كتاب سيبويه. أمبتكر هو أم منقول ؟

وحجتهم فى ذلك التشكك أنه لا يعقل أن يجئ الكتاب الأول فى مادة ما ناضجا تاماً، وأن يكون كل ما يجئ بعده عالة عليه، ومستفيداً منه وشارحاً أو ملخصاً له(١).

كما يدفعهم إلى ذلك التشكك وجود تشابه بين تصنيف الهنود لأصوات السنسكريتية حسب المخارج وتصنيف علماء العربية حيث رتب الهنود الأصوات ابتداء من أقصاها وهو الترتيب الذى اتبعه علماء العربية.

أضف إلى ذلك أن الدراسات الصوتية ظهرت فى الثقافة العربية دفعة واحدة كما أن البحور الشعرية التى وضعها الخليل لها شبيه عند الهنود(٢) .... إلخ.

---

(١) يذهب إلى هذا الدكتور عبدالرحمن أيوب فى مناقشاته، وفى مقال له، أنظر حوليات دار العلوم، العدد الأول، سنة ١٩٦٩، والمقال تحت عنوان :

"Arabic Linguistic thought; It's Sources and chracteristics. A.R. Ayoub M.A. Ph, d (London) Prof. of Linguistics.

كما يرى هذا الرأى الدكتور محمود السعران فى كتابه علم اللغة، غير أنه يقول، وليس لدينا دليل يقطع بأن العرب أخذوا عن الهنود إلا الاستنتاجات العقلية، أنظر : ص٧٦، ٧٧.

وفى دائرة المعارف الإسلامية مادة الخليل بن أحمد : «كان الخليل أيضاً أول من صنف معجماً عربياً هو كتاب العين، والظاهر أنه رتبه على حروف الهجاء عند نحاة السنسكريتيين...».

(٢) علم اللغة د. محمد السعران، ص٩٩.

ويذهب قريباً من هذا الدكتور شوقى ضيف حيث يقول : «وقد وضع الخليل معجماً للعربية بترتيب مخارج الحروف متأثراً بالهنود في ترتيب حروف لغتهم».

(الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، ص١٣٢) =

ومما لاشك فيه أن علماء العربية استفادوا من ثقافات الأمم الأخرى، ولا يستطيع باحث متمعن أن ينكر أثر الثقافة الهندية وكذلك الثقافة اليونانية ومثلها الثقافة الفارسية فيما خلفه علماء العربية من تراث، ولكنها بعض المشابهات والتأثير الذى لا يطعن فى الأصالة فالحضارات عندما تتلاقى يحدث التأثير والتأثر ولكن لا على أن يوضع ذلك موضع الاستقصاء مما يوحى بالطعن وإلا فالجميع أمام الاستفادات سواء والدليل

= وإقرأ ما عرضه الدكتور أحمد مختار، عرض نقاط اتفاق فى البحث اللغوى بين العرب والهنود فى الدراسات الصوتية، وفى الدراسات النحوية والصرفية وفى المعجم وفى بحوث متنوعة فى فقه اللغة من ص ١٢٧، ١٣٦ من كتابه البحث اللغوى عند الهنود.

ويذهب الدكتور أحمد مختار عمر إلى أن هذه القضية تتنازعها ثلاثة اتجاهات : إتجاه يقطع بالأخذ عن الثقافة الهندية، واتجاه يرفض واتجاه يقف بين بين ويأخذ هو بالاتجاه الوسط. (ص ١٣٨-١٦٠، السابق).

والرأى عندى أنه لا يوجد غير اتجاهين إثنين بدليل أن الرأى الوسط يذهب إلى وجود الأخذ ولكنه لا يملك عليه دليلا على نحو ما هو واضح من رأى الدكتور السعران ودائرة المعارف الإسلامية، بل ومن قول الدكتور مختار نفسه وبدليل نصه هو حيث يقول عن الرأى الذى يميل إليه : «هو ذلك الذى يرجح جانب الإيجاب على جانب السلب ويثبت تأثيراً هندياً من نوع ما على اللغويين العرب أو على الأقل يميل بدرجة كبيرة إلى احتمال وجود هذا التأثير».

وأقول إن الذى حدث هو نوع من تداعى المعانى وتواردها بين الثقافات ولم يحدث أخذ ولا نقل.

وقد تولى الدكتور أحمد مختار الرد على الرأى الذي تبناه الدكتور عبدالرحمن أيوب فى محاضراته فى علم اللغة التى ألقاها على طلبة الليسانس بكلية دار العلوم فى العام الدراسى ٦٧-٦٨م والتى يقول فيها ص٧ من الممكن أن نلخص مميزات الدراسات اللغوية الهندية فى أمور هى :

١ - العناية بدراسة الأصوات ومخارجها.

٢ - عدم الإهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية.

٣ - الاعتماد على أشكال الألفاظ فى تقسيمها إلى أنواع

وبالنظر إلى كتاب سيبويه - أول كتاب فى العربية - نجد أنه على العكس من الكتب النحوية المتأخرة قد تميز بهذه المميزات الثلاث نفسها ومن أجل هذا نفسر الاختلاف بين كتاب سيبويه والكتب المتأخرة، بأن سيبويه قد تأثر فى تبويب كتابه بالطريقة الهندية فى التأليف أما المتأخرون فقد تأثروا بالمنطق الإغريقى، (إقرأ من ص ١٥٤-١٦١).

=

على ذلك بالإضافة لما يراه أنوليتمان(١) وكارل بروكلمان(٢) أننى أرى أنه من المستبعد أن ينقل علماء المسلمين علماً بتمامه من ثقافة ما من تلك الثقافات أو أن يأخذوا مؤلفاً بجملته وتفصيله وخاصة مثل كتاب سيبويه وذلك لأمور منها :

= فقد تولى مناقشة هذه النقاط والرد عليها واحدة واحدة، وخلاصة الرد :

- أن الهنود لم تكن لديهم مدرسة نحوية واحدة وحتى إن كان الدكتور أيوب يقصد المدرسة البانينية فليس هناك وجه شبه بين منهج هذه المدرسة ومنهج سيبويه فى الكتاب أو منهج أى نحوى عربى جاء بعد سيبويه حتى يومنا الحاضر.

- أن النحو العربى لم يتخلص من سلطان الفلسفة كما ظن الدكتور أيوب واعتبر ذلك فرقاً أساسياً بين الهنود واليونانيين، ووجد اتجاه بين الهنود لفلسنة النحو الهندى وصبغه بالصبغة العقلية ومرجعه فى ذلك مواطن كثيرة من أقوال "Chakravarti" فى كتابه "The Philosophy of Sanskrit Grammar"

- ثم يثبت أن كتاب سيبويه لا يخالف كتب المتأخرين من ناحية التأثر بالمنطق.

(وهذه حقيقة نتفق معه فيها وأكدتها أبحاثنا، أنظر : فصل اللغة والمنطق من هذا الكتاب).

(١) يقول أنوليتمان : اختلف الأورباويون فى أصل هذا العلم فمنهم من قال : إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب وقال آخرون ليس كذلك، وإنما كما تنبت الشجرة فى أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب، وهذا هو الرأى الذى رؤى فى كتب العرب من زمن، ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهباً وسطاً،وهو أنه أبدع العرب علم النحو فى الابتداء، وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه، لكن كما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان فى بلاد العراق تعلموا أيضاً شيئاً من النحو.. وبرهان هذا أن تقسيمهم الكلمة مختلف، قال سيبويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا تقسيم أصلى أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وفعل ورباط، وهذه الكلمات ترجمت من اليونانى إلى السريانى ومن السريانى إلى العربى، فسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو. أما كلمات إسم وفعل وحرف، فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت».

(محاضرات أنوليتمان ضحى الإسلام، الطبعة الخامسة - مكتبة النهضة المصرية ٢، ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) ويرى كارل بروكلمان أنه لا يمكن إثبات التأثر الأجنبى على النحو العربى لا من القواعد اللاتينية ولا من الهندية ويرى أيضاً عدم وجود تأثير هندى فى علم الأصوات العربية، وإن وجدت بعض المشابهات العارضة إتفاقاً من طبيعة البحث.

أنظر : البحث اللغوى عند الهنود، ص١٤١ ومرجعه :

كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٢-١٢٣، وهامش رقم ٥، ص ١٢٤

«أن علماء المسلمين توصلوا إلى القواعد النحوية أثناء قيامهم بالعمل القرآنى وأن القواعد التى انتهوا إليها نتيجة لاستقراءاتهم فى العربية وأنها خاصة بظواهر لغوية مطردة فيها استلفتت نظرهم وهى متصلة بالحركات الإعرابية وتلك خاصة من خصائص العربية إلى أبعد مدى والنحو جاء نتيجة تفكير فى ظواهر لغوية عمقوا النظر فيها وظل ينمو فكرة فكرة على أيدى الدارسين جيلا بعد جيل نتيجة طول النظر والمراجعة والتعمق فيما يعن لهم من ظواهر. وقد كان لعلماء كل عصر إضافات هامة.

وعلى سبيل المثال كان لعبدالقاهر الجرجانى إضافة جوهرية(١) لقب فى عصره بسببها «بالمفتن فى العربية ونحوها» وقد نحا بها تابعوه منحي مخالفاً لما أراد وأطلقوا عليها اسما محرفا فسموها علم المعانى، وقالوا إنه واضع أسس علم المعانى ولو سارت آراءه مثلما أراد لمعانى النحو لرأينا فى النحو العربى أبعاداً لم تعرفها الدراسات اللغوية على أيدى المحدثين إلا قريباً(٢).

وهذا يؤكد أن لهؤلاء العلماء فى هذا المجال أصالتهم الفكرية التى تبدعها عبقريتهم وأن لهم مساراتهم واتجاهاتهم العلمية وأنهم ليسوا مجرد قلة وإنما هو التأثير والتأثر أو الأخذ والعطاء(٣) الذى لا يطعن فى أصالة

---

(١) لعبدالقاهر إضافات فى الدراسات النحوية التقليدية، كما أن له اتجاهاً تحديثياً أنظر عالم اللغة عبدالقاهر الجرجانى من ص ١٤٩-٢٢٨.

(٢) إقرأ أبعاد تلك الأفكار فى المرجع السابق، ص ١٢٥-١٤٦ فى منهجه التجديدى فى الصرف، ومن ص ١٨٥ وما بعدها عن منهجه التجديدى فى النحو. وهل نستطيع أن نقول أن علماء اللغة فى الغرب نقلوا أفكارهم عن عبدالقاهر الجرجانى أو أخذوها عنه؟!، إنه العقل البشرى يبدع فى كل عصر ويأخذ ويعطى.

(٣) ومن ذلك على سبيل التمثيل ما يشير إليه الدكتور إبراهيم سلامة من أن الفصل السابع من الكتاب الثانى لخطابة أرسطو وعنوانه ملاءمة الأسلوب Sur La Convenance du Style ألصق بما يسميه =

ولا ينبغى تتبعه وإلا حق لنا أن نطعن فى أصالة اليونانية لاستفادتها من الفرعونية وفى أصالة الحضارة الغربية لاستفادتها من العربية وهذا ما لا يصح.

فالنحو هذا العمل الضخم لا يرد أمره لسيبويه وحده. ولا للخليل وحده وإنما هو من عمل الجماعات، وثمرة جهود كثير من الدارسين الذين تعاقبوا على هذه الدراسة منذ قيام أبى الأسود الدؤلى بوضع نقطة البدء وإن نسب الكثير من المباحث اللغوية البارعة للخليل(١)

أضف إلى ما سبق أنه لا يعقل أن يظل أمر علم مسروق خفياً لا يدركه أحد ممن نقل إليهم أو نقل عنهم. ومعلوم أن الباحثين لا تخفى عليهم خافية ولسيبويه والخليل من الحاسدين من كانوا يتمنون أن يكتشفوا ثغرة للتشهير بهما.

ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا ما عرف عن الخليل من الزهد والورع(٢) وهو القائل : «إذا لم تكن طائفة العلماء أولياء الله فليس لله ولى(٣)، وقد قال ابن سلام عن سيبويه : «كان سيبويه النحوى غاية فى الخلق»(٤).

= علماء البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن العرب الفضل فى دقة المصطلحات التى وضعوها واختيار الشواهد من كلامهم.

وأضيف أن هذا الموضوع كان إنطلاقة من النحو العربى وفى النحو العربى قبذوره التى نماها عبدالقاهر من كتاب سيبويه، وقد لام عبدالقاهر النحاة لأنهم لم ينتهوا لما قاله سيبوه، كما أنه لم يعف سيبويه من اللوم.. ثم أعطاها أبعاداً تمت من بعده على أيدى العلماء فى مسارات تتفق وأبعاد ثقافة كل واحد منهم وعمق تفكيره، وفى هذا أصالة وتأثر معاً. وأخذ وإعطاء تفرضه طبيعة احتكاك العقول.

إقرأ موضوع ربط الكلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى حاله في عالم اللغة ص ٢٥٠.

(١) إقرأ : إحياء النحو، ص ١١.
(٢) إقرأ : نزهة الألباء، ص ٧٥.
(٣) السابق، ص ٥٨.
(٤) السابق، ص ٧٤.

غير أن الرؤية فى هذه القضية تتضح بصورة أجلى عندما نربط بين أطرافها ونجد أن القضية ظهرت على أيدى المستشرقين فى هذا العصر وهم الذين شككوا وهم الذين دافعوا وهم الذين قطعوا بوجود الأخذ والإخفاء. فبالإضافة لما سبق نجد أن بعض المستشرقين يرون أن عصر أبى الأسود لا يتواءم وهذه الاصطلاحات المرتبة التى بين أيدينا، وإنما هى وليدة عصر متأخر عنه تطور فيه العلم حتى صار مناسباً لهذه القواعد المرتبة.. وأنه ليس حقاً ما يقال إن أبا الأسود واضع أصول النحو العربى(١).

فالقضية أطرافها متعددة إنها تارة تتناول علم العربية من أساسه وتجعله منقولا عن الهندية أو اليونانية، وتارة تتناول المؤلف الأول فيه وتضع احتمال أنه مأخوذ عن الهندية، وتارة تتناول العصر الذى ألف فيه، وترى أنه لا يتلاءم مع ما عليه النحو من نضج ومن دقة فى الترتيب والتسلسل.

ولا يملك صاحب أى رأى من هؤلاء حجة قاطعة على زعمه حتى أشدهم تحمساً لا يملك إلا الظن، وإن الظن لا يغنى من العلم شيئاً.

ولكن الذى يحدث أنه يكفى أن يلقي أى مستشرق قولا فى مثل هذه القضية فيستهوى من يستهوى لما فيه من طرافة أو جرأة.. أو لما يوحى بأنه هدى إلى كشف جديد أو لما يثيره حول صاحبه من ضجة وجدل، كما أن بعض الباحثين يحاولون التوفيق إما دفاعاً أو إرضاء.

فمثلا نجد للأستاذ أحمد أمين رأياً يحاول فيه أن يجعل القضية تبدو فى صورة طبيعية وأن يسلسل الفكرة ويجعلها تتواءم مع نظرية النشوء والإرتقاء فيقول : «ويظهر لى أن نسبة النحو إلى أبى الأسود لها أساس

(١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، العدد الخامس، (ترجمة أبى الأسود الدؤلى).

صحيح وذلك أن الرواة يكادون يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط، وهو أنه ابتكر شكل المصحف(١) وواضح أن هذه خطوة أولية فى سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ويمكن أن تأتى من أبى الأسود، وواضح كذلك أن هذا يلفت إلى النحو فعمل أبى الأسود يسلم إلى التفكير فى الإعراب ووضع القواعد له.. وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها فيما بعد وسموا كلامهم نحوا سحبوا اسم النحو على ما كان من قبل من أبى الأسود، وقالوا إنه واضع النحو للشبه فى الأساس بين ما صنع وما صنعوا، وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً.. إنما الذى كان له الفضل الأكبر فى ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذى قل أن يوجد له نظير فى علماء ذلك العصر، وهو الذى عمل النحو الذى نعرفه إلى اليوم»(٢).

ويقدم الأستاذ إبراهيم مصطفى بحثاً تحت عنوان : أول من وضع النحو(٣) ويبدؤه بسؤال : «من أول من وضع النحو العربى، وأتخذ هذا المنهج المألوف فى رسم قواعد العربية؟».

وينفى أن أبا الأسود واضع أسس النحو، ويبين أن التباساً حدث، وأن أبا الأسود وطبقتين من النحاة بعده كانت مهمته أن ينقط المصحف، فإذا

---

(١) المقصود بشكل المصحف أى نقطه، وسميت هذه النقط شكلا لأنها تدل على شكل الحرف وصورته، وزعم بعضهم أن الشكل مأخوذ من شكلت الدابة إذا قيدتها بالشكال.

أنظر : تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية، ص ٦٨.

(٢) ضحى الإسلام، ج٢، ص ٢٨٦.

(٣) بحث ألقى فى المؤتمر الحادى والعشرين للمستشرقين الذى عقد فى باريس فى المدة من (٢٣-٣١ يوليه ١٩٤٨) ومنشور فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد العاشر.

اختلفوا فى كلمة قالوا : النحو كذا، أو العربية كذا. ومن هنا جاء التباس الأمر على الرواة فنسبوا وضع النحو إلى أبى الأسود فى حين أن المراد بالنحو المنسوب إليه نقط المصحف على سبيل العرب وسمتها فى القول(١). ويرى أن الحقيقة لا يجليها إلا البحث فى كتب النحو ذاتها لا فى أخبار الطبقات وينتهى به البحث فى كتب النحو إلى أن أقدم من نسب إليه رأياً نحوياً هو عبدالله بن إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧هـ وأن سيبويه قد ذكره ست مرات وأنه كان أقدم من أبى الأسود إذ أن أبا الأسود توفى سنة ٦٩هـ. ويؤيد رأيه بما ذكره ابن سلام من أن أول من بعج النحو ومد القياس والعلل عبدالله بن أبى إسحق.

ويرى أن تلميذه عيسى بن عمر الثقفى كان أول من حذق طريقته ومضى فى خطته وأكثر من استنباط القواعد حتى قال فيه الخليل بن أحمد :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ويقوم الأستاذ الباحث بعمل دراسة استقصائية يتتبع فيها كتب النحو الباقية بأيدينا ليعلم أقدم عالم نسب إليه رأى نحوى فى هذه الكتب ويخرج بهذه النتيجة.

عن أسماء العلماء الذين نسب إليهم رأى علمى فى كتاب سيبويه وهو أول هذه الكتب وعن عدد المواضع التى ترددت فيها أسماؤهم وذلك على النحو الآتى :

---

(١) جاء في تعريف إبن جنى عن أبى على الفارسى النحو : «النحو انتحاء سمت كلام العرب».

وجاء فى اللسان : «النحو انتحاء سمت العرب فى القول». ويرى أن الذى سبب اختلاط الأمر على الرواة أنهم كانوا يريدون بالنحو ضبط الكلام على سبيل العرب وسمتها فى القول.

(هذا التفسير لينقل وجهة نظر الباحث لأن التلخيص بتصرف).

* عبدالله بن إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ هـ ٦ مرات
* عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ ١٨ مرة
* أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ ٣٩ مرة
* الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٦٠ هـ ٣٧٦ مرة
* يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ ١٥٥ مرة

وينتهى إلى أن أقدم هؤلاء هو عبد الله بن إسحق وأنه تروى له آراء نحوية حتى فى الكتب المتأخرة كالأشمونى المتوفى سنة ٩٠٠هـ والسيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ ثم يقول «فنحن أمام حقيقة واضحة أخذت من كتب النحو وهى أن أقدم من ينسب إليه رأى نحوى هو عبدالله بن إسحق الحضرمى»(١)

وتعليقنا بأنه يكفى أن رأى دائرة المعارف فى التشكيك أثر على فطحلين من أساطين العربية ولا يشك فى صدق إخلاصهما وغيرتهما على التراث.. ولكنها الرغبة فى أن يبرئا العربية والتراث الإسلامى من نقص أو خلل ينسب فيسئ فكان رأى الأستاذ أحمد أمين فى النشوء والارتقاء ورأى الأستاذ إبراهيم مصطفى وهما معاً أجمعا على هدم ركن وطيد كل من زاوية وإن كان هدفهما غير ذلك.

ثم يأتى الأستاذ عبدالوهاب حمودة ويقدم بحثاً(٢) «حول بحث أول من وضع النحو» للأستاذ إبراهيم مصطفي يخالفه فيه فى النهج الذى انتهجه فى الاستنباط الذى استنبطه ويرى :

---

(١) السابق، ص ٧٢. وتستحب قراءة المقال من ص ٦٩ إلى ٧٤.

(٢) نشرته مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة فى المجلد الثالث عشر من ص ١٣٣ إلى ١٤٤.

* أن عدم سبق كتب النحو لكتاب سيبويه فى النقل عن العلماء الذين تقدموا عبدالله بن إسحق ليس دليلا على أن أولئك الأئمة لم يكن لهم سبق فى التفكير فى النحو ولم يقوموا بأية محاولات يصح أن تعتبر نواة كما اعتبرت محاولات عبدالله بن أبى إسحق نواة. ويرى أنه ليس من السهل طرح جميع الروايات التى رويت فى وضع أبى الأسود للنحو أو للعربية وأن لتضعيف الروايات أو رفضها قوانين وقواعد وضعها علماء الرواية(١).

* ويرى أننا إذا رجعنا إلى ما ذكره سيبويه فى كتابه رواية عن ابن أبى إسحق وجدناه لا يخرج عن محاولات وإتجاهات قد قام بمثلها من سبقوا ابن أبى إسحق كيحيى بن يعمر، وعبدالله بن هرمز ونصر بن عاصم غير أن ميدان هؤلاء هو كتب القراءات لا كتب النحو فقد كانوا جميعاً فى أول أمرهم من القراء حتى ابن أبى إسحق. ويأتى بأمثلة شبيهة بما رواه سيبويه عن ابن أبى إسحق لهؤلاء العلماء ولأبى الأسود الدؤلى نفسه(٢).

* ويرى أن عبدالله بن أبى إسحق مشخصاً لآراء شيوخه فقد أخذ عن ميمون الأقرن وعن يحيى بن يعمر وعنبسة الفيل ونصر بن عاصم وكل هؤلاء أخذوا عن شيخهم أبى الأسود الدؤلى.

ثم يرسم معالم لشخصية أبى الأسود ولمجتمعه الذى يعج باللحن تارة فى القرآن وتارة فى غير القرآن ويرى أن رجلا مثل أبى الأسود على نحو ما

---

(١) يقصد أن الأستاذ إبراهيم مصطفى طرح الروايات دون إتباع قاعدة أو قانون.

(٢) يأتي بمناقشة نحوية فى بيت من الشعر عن أبى الأسود تشبه ما جاء به عن ابن أبى إسحق ومصدره فيها سمط اللآلئ. وأمالى المرتضى والأغانى والكامل للمبرد وأنباء الرواة للقفطى.

(إقرأ : السابق، ص ١٣٥).

ومعنى ذلك أن على الباحث فى هذا المجال ألا يكتفى بكتب النحو فقط، ولا يكتفى بأن يضم إليها كتب طبقات اللغويين والنحاة فقط، وإنما يضيف إليها كتب القراءات، وكتب طبقات القراء وغير هذه وتلك.

وصفه الجاحظ فى البيان والتبيين والبكرى فى اللآلى كما سلم له الآن بما اخترعه من النقط ضابطاً للمصحف كان ينبغى ألا يمنع عليه بالتفكير فى ضوابط أولية ساذجة ليهتدى بها الأعاجم فى كلامهم وتكون لهم حواجز من اللحن.

كما أن ذهاب الأثر فى بطون التاريخ لا يسقط من قيمة الرواية فلو فرضنا أنه ليس هناك من أثر كتابى لأبى الأسود وتلامذته قبل ابن أبى إسحق فلا يدل هذا على أن الرواية ساقطة وغير صحيحة وإلا فأين القرآن الكريم الذى كان يأمر صلوات الله عليه كتّاب وحيه بكتابته على الرقاع واللخاف والعسب؟ بل أين القرآن الكريم الذى نسخ منه فى العرضة الأخيرة ما نسخ كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة ؟ بل أين الصحف التى جمعها أبوبكر ؟ فإذا قلنا إن هذه ممثلة فى المصحف الإمام الذى أمر بكتابته عثمان بن عفان فنقول قياساً على هذا إن الآراء الساذجة الأولية التى رسمها أبو الأسود وتلامذته فى العربية قد نجدها ممثلة فيمن جاء بعدهم» ثم يأتى بنص لصاحب الفهرست يؤكد رأيه(١).

---

(١) يقول صاحب الفهرست :

«كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين جماعة للكتب له خزانة لم أر لأحد مثلها كثيرة تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة، فأخرج لى قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود وصكاك فيها تعليقات على لغة العرب، ورأيت ما يدل على أن النحو من أبى الأسود ما هذه حكايته وهى أربع أوراق وأحسبها من ورق الصين ترجمتها : (هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر). وتحت هذا الخط خط عتيق (هذا خط علان النحوى) وتحته : هذا خط النضر بن شميل».

(أنظر : الفهرست لإبن النديم، الفن الأول من المقالة الثانية).

بقيت مكانة كتاب سيبويه وسر تبوئه لها على مر العصور والأجيال.

ولذلك أكثر من سبب :

أولها : خُلُق علماء المسلمن والنّصَفة بينهم للسابقين وأهل الفضل.

سئل يونس بن حبيب شيخ سيبويه عن عبدالله بن إسحق ومنزلته فى النحو فقال :

أنه هو والنحو سواء، أي هو الغاية فيه ولو كان فى الناس من لا يعلم إلا علمه اليوم لضحك منه ولو كان فى الناس من له رأيه ونفاذ بصيرته لم يقم له أحد(١). فهو العدل وإعطاء كل ذى حق حقه.. والسابقون السابقون.

أضف إلى ذلك طبيعة العصر الذى يعتمد على الرواية والدقة والأمانة خاصة فيما يتصل بالعربية لغة الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفى الإحصائية التى قام بها الأستاذ إبراهيم مصطفي ما يؤكد ذلك فقد استطاع أن يرد لكل ذى رأى رأيه فى دقة من كتاب سيبويه بعد أن مضى عليه ألف عام أو يزيد(٢).

---

(١) أنظر : أول من وضع النحو السابق، ومرجعه نزهة الألبا.

وأنظر طبقات بن سلام.

وأخبار النحويين البصريين للسيرافى.

وضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين، ص ٢٨٩.

(٢) ليس فى رد الأستاذ عبدالوهاب حمودة ما ينقص من قيمة إحصائية الأستاذ إبراهيم مصطفي هل هو يريد أن يقول إنه كان عليه أن يضيف إليها كتب الطبقات وكتب القراءات..

ولا يغيب عن بالنا أن كتاب سيبويه محصلة جهود سابقيه فالإجلال للجهد الجماعى الذى أفرزته عقول العلماء على اختلاف البيئات والطبقات. لهذا لا نعجب إذا وجدناه يحظى منهم بهذه المكانة وأن يقولوا عنه «من أراد أن يعمل كتابا فى النحو بعد سيبويه فليستح» لأنه ماذا سيصنع أكثر من هذا الجهد الجماعى الذى هو محصلة جهود السابقين، وإن اللاحقين يفرغون طاقاتهم حوله وهل هناك بعد هذا ؟ إن من يحط بهذين الطرفين فقد أحاط بالنحو من أقطاره المختلفة لذلك لا نعجب من قول المبرد لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه :

هل ركبت البحر تعظيماً له واستصعاباً لما فيه(١) ؟
وماذا يصنع دارسو نحو أى لغة من اللغات ؟!
وكيف توصل نحاة اللغات الأخرى لنحو لغاتهم ؟!

إن نحاة العبرية تأثروا بمنهج النحو العربى فهل يقال إن النحو العبرى منقول من العربى.

بل إن الدكتور أحمد مختار يقول : «إن بعض المشابهات بين العملين الهندى والعربى لم تقتصر عليهما وحدهما، وإنما وجدت فى لغات أخرى كذلك فمن أين لنا أن نقول بنفوذ هندى فيها؟(٢)».

ونحن نقول إن فى النحو العربى روح يسرى لاشعورى عن طريق ترجمة بعض العلوم أو الإطلاع على ثقافات الأمم الأخرى. وفى هذا ما يؤكده الأصالة ويثبت القدرة العقلية وحسن الإستفادة وليس هو النقل وإخفاء المعالم.

---

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) السابق، ص ١٤٤.

إقرأ : التحفظات التى ذكرها الدكتور أحمد مختار عمر فى هذه الصفحة من المرجع السابق، وما بعدها.

إن كتاب سيبويه محصلة للجهد الجماعى لسابقيه وأفرغ فيه لاحقوه. طاقاتهم فمن أراد أن يعمل فى النحو بعد ذلك فسوف لا يستطع أن يصنع أكثر من هذا بل إن الاتجاهات النحوية على الرغم من تعدد العواصم العلمية فى العالم الإسلامى عبر التاريخ إلى يومنا هذا ما استطاعت أن تصنع أكثر من أن تدور حول هذه الجهود لا فرق فى ذلك بين كوفى وبصرى ومصرى وبغدادى وأندلسى وقروى حقاً لكل إضافات ولكنها داخل الدائرة التى رسمها هذا المنهج. غير أن الذى أضاف إضافة جديدة هو عبدالقاهر، وإن كان أثرها فى مجال الدرس النحوى قد تلاشى تماماً.

وإننى أقول إن النحو العربى فى حاجة حقة إلى تجديد فى منهج التناول والدرس ويمكن أن يتخذ هذا الإتجاه التجديدى مسارين :

أحدهما : مسار النحو التوليدى Generative Grammar بمعنى الإستفادة من نظرية العالم الأمريكى المعاصر تشومسكى، والتى عرفت باسم النحو التحويلى التوليدى Generative Transformational Grammar حيث إن قواعد اللغة يمكن أن تصير جهاز لتوليد (to generate) جميع الجمل النحوية الصحيحة فى اللغة موضوع الدرس. فالقواعد النحوية يجب أن تكون قادرة على خلق الجمل الصحيحة فقط وتوليد كل الجمل الممكنة فى تلك اللغة فهى قواعد(١) وهذه تشبه إلى حد تلك الجمل التى كان يفترضها عبدالقاهر وغيره من نحاة العربية بمعنى افتراضهم

---

(١) أنظر فى هذه النظرية : Grinder & Elgin; guid to transformational grammar P.4. .

وأنظر : د. عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ١، ص ١١١ وما بعدها. وإقرأ الباب الثانى كله فصل ١، ٢، ٣ إلى ص ١٦٠.

وأنظر : التعريف بعلم اللغة، تأليف دافيد كريستل، ترجمة د. حلمى خليل، هامش ص ١٥٠ للمترجم

جملا وحكمهم على صحتها. وهو ما أشرنا إلى مثله فى (عالم اللغة) تحت عنوان إمكانيات التأليف بطرق التعليق الممكنة وما سنجد له أمثلة فى فصل اللغة والمنطق.

أما المسار الثانى : فهو تنمية نظرية معانى النحو التى دعا إليها عبدالقاهر الجرجانى(١) والتى تتفق مع ما يدعو إليه هلمسلف فى إحدى مقالاته على الرغم من أنه يظن أن أحداً من فقهاء اللغة لم ينتبه لما قاله ولم يهتم به قبل اليوم(٢).

يشير الأستاذ لويس هلمسلف الدانمركى فى إحدى مقالاته إلى العنصر المهم فى الدراسة اللغوية فيقول : «إن الوحدات الحقيقية فى اللغة ليست الأصوات ولا الأشكال المكتوبة ولا المعانى ولكن الوحدات الحقيقية فى اللغة هى العلاقات المتبادلة بينها فى سلسلة الكلام على القواعد النحوية وهذه العلاقات تصنع نظام اللغة. وهذا النظام الداخلى هو المميز للغة على الأخرى بينما يعتبر التمثيل بالأصوات والأشكال المكتوبة والمعانى غير ذى صلة بنظام اللغة ويمكن تغيير هذه الأشياء بدون تغيير النظام. وهذا هو السبب فى أن المنهج التركيبى للغة فى حقيقة معناه مفهوماً على أنه العلاقات لأنماط اللغة بعيداً عن التحقيق فى الاستعمال اللغوى، لم يهتم به فقهاء اللغة قبل اليوم»(٣).

---

(١) أنظر إلى أبعاد هذه النظرية فى عالم اللغة من ص ١٨٨ وبعدها ومن ص ١٢٧ وما بعدها.

(٢) إقرأ : مقدمة لدراسة فقه اللغة د. محمد أحمد أبو الفرج ص ٢٣.

(٣) أنظر : مقال Louis Hjelmslev, Structural Analysis of Language Studia Linguistics 1948 pp 69 FF.

وأنظر : مقال J.R. Firth; Structural Linguistics; T.P.S. 1955. pp. 95-96.

ومقاله : J.R. Fith; Descriptive grammar : papers in Linguistics, 1957. p. 220.

وقد تضافرت جهود العلماء حول كتاب سيبويه(١) هذا فهو عمل الجميع يأخذه اللاحق عن السابق قرأه أبو الحسن سعيد بن مسعد الأخفش، وقرأه عليه أبو عمر الجرمى وأبو عثمان المازنى وجاء المبرد فقرأ الكتاب على الجرمى والمازنى وأقرأه المبرد بعد ذلك أصحابه وتلاميذه ومنهم ابن درستويه وعلق عليه بالشرح والتفسير.

ثم تعاقبت عليه الشروح بعد ذلك فقد شرحه المبرد على بن سليمان الأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥هـ. وابن السراج المتوفى سنة ٣١٦هـ والرمانى المتوفى سنة ٣٤٨ هـ. وابن الحاجب، وأبو العلاء المعرى وغيرهم.

وإن نظرة واحدة فى سلسلة الأجيال التى تراها متتابعة فى الدرس اللغوى النحوى تريك كيف أن هذا العمل عمل جماعى وجهد مشترك يرتبط فيه العلماء بسلسلة نسب(٢).

وقد جاء علماء واستقلوا بتآليف ولكنها فى النهاية تأخذ من هذا الجهد الجماعى حتماً، فهذا النوع من الدرس لا يبدأ عالم فيه من فراغ أبداً فلم يأت واحد من هؤلاء بخلق جديد وإنما هو غاية الأمر قد اكتشف قواعد موجودة فى اللغة تستعملها الجماعة اللغوية(٣).

---

(١) أنظر : دائرة المعارف الإسلامية، مادة سيبويه.

واقرأ : كتب الطبقات : ابن سلام فى طبقات الشعراء. وابن قتيبة في المعارف.

(٢) أنظر : الرسم الموضح لهذه السلسلة ص ٣٩.

والزجاجى فى الأمالى. وأبى الطيب اللغوى فى مراتب النحويين. والسير فى أخبار النحويين البصريين. والزبيدى فى الطبقات. وابن النديم فى الفهرست. وابن الأنبارى فى نزهة الألباء.

(٣) أنظر : الرسم الذى يوضح سلسلة نسب هؤلاء العلماء فى الشكل المقابل ص ٣٩ ومنه يتضح أنه جهد جماعى فيه تعاون ونكران للذات.

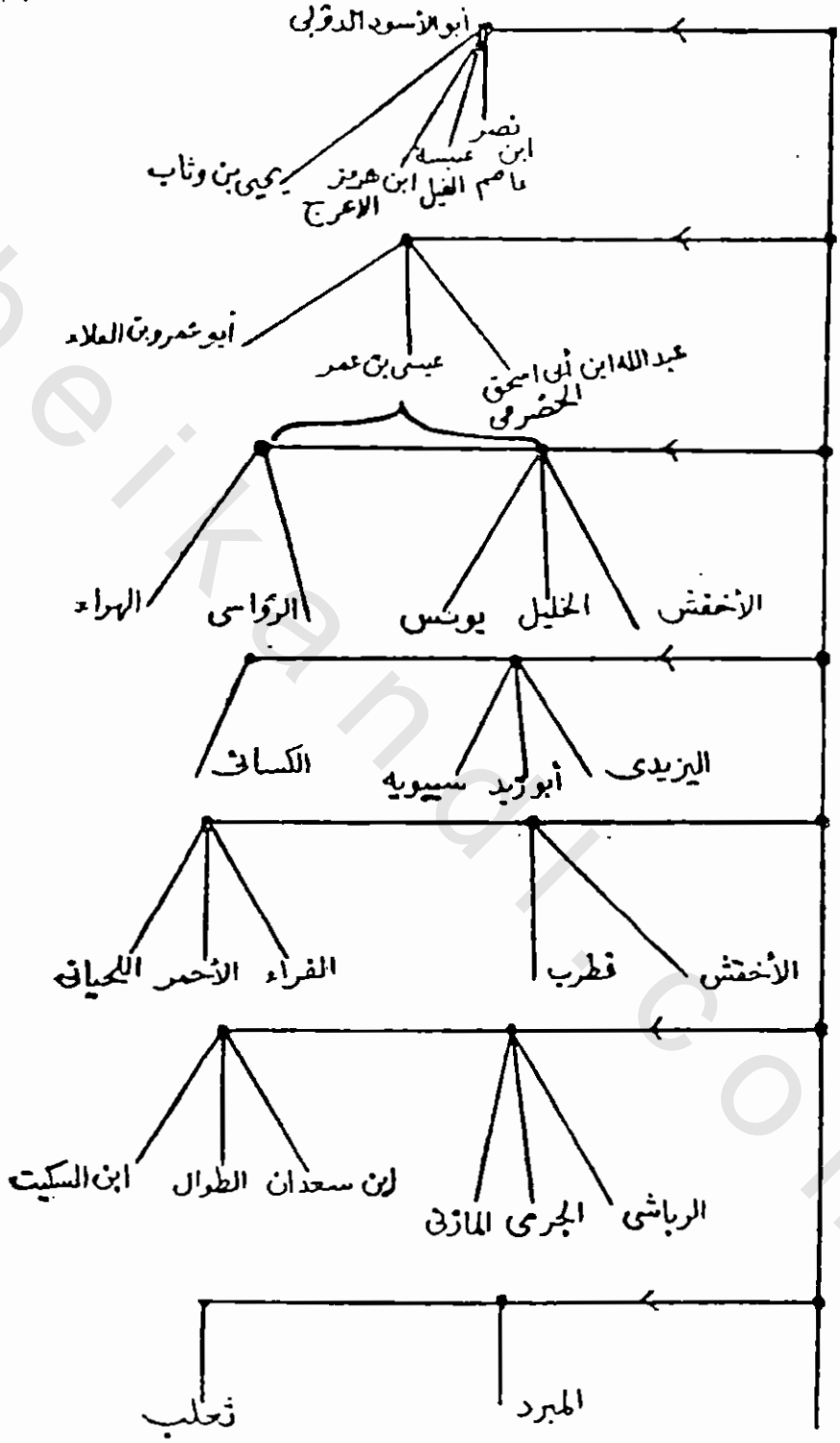
أبو الأسود الدؤلي
يحيى بن وثاب
ابن هرمز الأعرج
عيسى ابن نصر
عاصم الجحدري
أبو عمرو بن العلاء
عيسى بن عمر
عبد الله ابن أبي إسحق الحضرمي
الفراء
الرؤاسي
يونس
الخليل
الأخفش
الكسائي
أبو زيد
سيبويه
اليزيدي
الأخفش
الفراء
الأحمر
اللحياني
قطرب
الأخفش
ابن السكيت
ابن سعدان
الطوال
الرياشي
الجرمي
المازني
المبرد
ثعلب

ولأهمية جهد كل عالم من هؤلاء ولأهمية دور كل عالم عبر الزمن من خلال هذه الطبقات وما بعدها فقد تفردت كتب لحصر جهودهم وحددت دور كل واحد وأحصت ما قدمه فى مجال أدائه أو اجتهاده سواء فى القراءات القرآنية أو الدراسات اللغوية أو النحوية.

فهما مجالان متكاملان ينحصران فى كتب طبقات القراء وكبت طبقات اللغويين والنحاة.

قد حرص العلماء فى كتب القراءات على تسجيل كل دقيقة صغيرة أو كبيرة ونسبوا لكل عالم ما له. ومثلها كتب اللغة والنحو.

أما كتب الطبقات فى المجالين فقد حصت وأوعت وسجلت أقوال العلماء ومذاهبهم وآراءهم وبسطت القول فيها وأحصت مؤلفاتهم وحددت أعمارهم وتاريخ وفياتهم(١)... إلخ.

---

(١) من كتب طبقات القراد كتاب «غاية النهاية» لشمس الدين أبى الخير محمد بن محمد بن الجزرى وقد عنى بنشره ج. برجشتراسرا "G. Bergstrasser" (مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٥م) (طبعة أولى، مكتبة الخانجى، بمصر ١٩٣٣م - فى مجلدين).

وعدد القراء فيه ٣٩٥٥، يقع فى الجزء الأول منه ٢٥٣٣ والبقية فى الجزء الثانى والترتيب أبجدى وليس زمنياً.

وعلى سبيل المثال مما جاء فيه عن يونس بن حبيب شيخ سيبويه «روى القراءة عرضاً على أسامة بن يزيد العطار وأبي عمرو بن العلاء وأخذ العربية عنه وعن حماد بن سلمة، وروى القراءة عنه ابنه حرمى بن يونس، وأبو عمرو الجرمى، وإبراهيم بن الحسن وعبدالله بن سليمان، وعيسى الأسدى، وموسى بن عبدالصمد الأبلى».

كما جاء عن القراء على سبيل التمثيل أيضاً : (يحيى بن زياد أبو زكريا الخوارزمى)، روى القراءة عرضاً عن على بن حمزة الكسابى. وهو من جلة أصحابه قال الهذلى :

«وهو نظير قتيبة فى الإمالة - روى القراءة عنه عرضاً يحيى بن زكريا النيسابورى، وذكر ابن سوار أن يوسف بن جعفر بن معروف قرأ عليه فقط يحيى بن زكريا والله أعلم».

وعن كتب القراءة نفسها : =

بالإضافة إلى كل ما سبق فإن لهؤلاء العلماء وهم بصدد جمع

= ـ إقرأ : مختصر شواذ القرآن من كتاب البديع لإبن خالويه (المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٤) عنى بنشره أيضاً ج. برجستراشر (وهو رقم ٧ فى سلسلة النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية).

ـ وكتاب النشر فى القراءات العشر لإبن الجزرى أيضاً.

ـ والحجة فى القراءات السبع للإمام ابن خالويه، تحقيق وشرح : د. عبدالعال سالم مكرم.

ـ وكتاب السبعة فى القراءات لإبن مجاهد، تحقيق : الدكتور شوقى ضيف.

أما عن كتب طبقات اللغويين والنحاة :

فقد حظيت كل كتب اللغة وطبقات اللغويين والنحاة بمثل ما حظيت به كتب القراءات، وطبقات القراء.

فلقد كان للدور الذى يقوم به هؤلاء العلماء أهمية فهو يتصل بالكتاب الكريم والعقيدة الحنيفة.

وقد أورد ياقوت فى مقدمة معجم الأدباء، (ج١، ص٤٧) أن مؤلفات صغيرة فى هذا المجال قام بها : محمد بن يزيد المبرد، وأحمد بن يحيى المعروف بثعلب، ومحمد بن عبدالملك التاريخى، وعبدالله بن جعفر بن درستويه. وقال ياقوت بعد أن ذكر هذه الكتب : «ثم صنف فيه أبو عبدالله محمد بن عمران المرزبانى كتاباً خضلا على عادته فى تصانيفه إلا أنه حشاه بما رووه وملأه بما وعوه فينبغى أن يسمى مسند النحويين وقد وقفت على هذا الكتاب وهو تسعة عشر مجلداً. ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب مع أنه قليل التراجم بالنسبة إلى كبر حجمه».

ثم ألف فيه أبو سعيد الحسن بن عبدالله المرزبان السيرافى القاضي كتاباً صغير عن نحاة البصرة.

وفى القرن الرابع ظهر كتابان جليلان فى هذا الشأن هما : كتاب «طبقات النحويين واللغويين» لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأشبيلى الأندلسى (حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم - نشر دار المعارف ١٩٧٣) وبنى الزبيدى كتابه على الطبقات والمدارس وقد عنى فيه بذكر المواليد والوفيات وملأه بمختلف الأخبار والطرف والحكايات عن النحويين واللغويين فجعل البصريين عشر طبقات بدأهم بأبى الأسود الدؤلى، وعبدالرحمن بن هرمز وختمهم بالطبقة العاشرة وهم أصحاب الزجاج وأصحاب ابن السراج وأصحاب الأخفش على بن سليمان وأصحاب ابن درستويه.

وجعل النحويين الكوفيين ست طبقات بدأ الطبقة الأولى بالرؤاسى ومعاذ الهراء وأبى مسلم وختمهم بأصحاب ثعلب.

وجعل اللغويين البصريين سبع طبقات بدأهم بالمنتجع الأعرابى وختمهم بأصحاب ابن دريد.

وجعل اللغويين الكوفيين خمس طبقات بدأهم بحماد بن هرمز وأبى البلاد الأعمى وختمهم بأبى عمر المطرز ومحمد بن الحسن بن يعقوب وأبى عبدالله الحسين بن أحمد القزاوى.

وجعل النحويين واللغويين المصريين معا ثلاث طبقات والنحويين واللغويين القرويين معاً أربع طبقات. والنحويين واللغويين الأندلسيين معاً ست طبقات. =

مادتهم وإقامة الدراسة» عليها اجتهاداتهم وحسناتهم التى حسبت لهم

= والكتاب الثانى كتاب مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى من علماء بغداد ثم حلب، وقد أدار أبو الطيب كتابه على ذكر مراتب العلماء ومنازلهم من العلم، وحظهم من الرواية وعقد الصلة بين الشيوخ والتلاميذ منذ ظهور اللحن ووضع أبى الأسود للنحو ثم ظهور البصرة والكوفة وبغداد عواصم علمية لدراسته.

وألف القاضى أبوالمحاسن المفضل ابن محمد بن مضر المغربى كتاباً لطيفاً ذكره ياقوت.

وذكر أيضاً أن على بن فضال المجاشعى ألف كتاباً وسماه «شجر الذهب فى أخبار من ذهب» ثم قال عنه : وجدته كثير التراجم قليل الفائدة لكونه لا يعنى بالأخبار ولا يعبأ بالوفيات والأعمار.وضع أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنبارى كتابه «نزهة الألباء فى طبقات الأدباء» قال عنه « ذكرت فى هذا الكتاب الموسوم بنزهة الألباء فى طبقات الأدباء معارف أهل هذه الصناعة من الأعيان ومن قاربهم فى الفضل والإتقان، وبينت أحوالهم وأزمانهم على غاية الكشف والبيان (طبع كتاب نزهة الألباء بالعراق سنة ١٩٥٩).

وألف الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى كتابه المعروف «أنباه الرواة على أنباه النحاة» وقد ذكر فيه علماء علمى النحو واللغة ورتبهم على حروف المعجم وصدره بترجمة سيدنا على بن أبى طالب وأبى الأسود الدؤلى، ثم ذكر العلماء فى مختلف البيئات على امتداد أرض الوطن الإسلامى آنذاك من أرمينية والمغار وأذربيجان وما وراء النهر وعزنه وكرمسير وخراسان والجبال وديار بكر والموصل والشام ومصر ووسط أفريقية والمغرب وصقلية والأندلس (طبعته دار المعارف المصرية بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم).

وفى القرن الثامن وضع عبدالباقى بن على بن محمد بن عبدالمجيد القرشى اليمانى كتاباً صغيراً أسماه «إشارة التعيين تصره على المشهورين» وذكر أنه فرغ من تأليفه سنة ٧٧٣هـ علي ترتيب حروف المعجم (منه نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٦١٢ - تاريخ).

كما ألف ابن قاضى شهبه أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدى المتوفى سنة ٨٥١هـ كتاباً أسماه طبقات النحويين واللغويين أودع فيه أسماءهم مرتبة على حروف المعجم.

(منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق).

وألف عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطي كتابه بغية الدعاة فى طبقات اللغويين والنحاة أودعه صفوة جميع الكتب التى سبقته وزاد عليها ما انتقاه من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ومعاجم الشيوخ والتذكرات ومقدمات الكتب بالإضافة لمشاهداته وأخبار شيوخه وعلماء عصره، قال في وصفه بنيت فيه النحاة طبقات قواعدها على مر الزمان لاتهى وأحييت فيه ميتهم فلم أغادر شهيرا ولا خاملا إلا نظمته فى سلك عقده البهى فلو رآه البيهقى لخلع وشاحه بين يديه توقراً. ثم ذكر من الكتب التى استعان بها لترجمة علماء العجم :

- تاريخ بغداد للخطيب القزوينى، والذيل عليه للحافظ تقى الدين بن رافع.

- وتاريخى نيسابور للحاكم عبدالغفار. =

لدى الدارسين المنصفين كما أن لهم زلاتهم التى أخذت عليهم أيضاً.

= ـ وتاريخ جرجان للسهيمى.

ـ وتاريخ أصبهان لأبى نعيم، كما ذكر فيه علماء المغرب ومصادره عنهم فقال : «وأما علماء المغرب فأهله أصحاب اعتناء شديد، والنحاة عندهم جم غفير وأكثر ما وقفنا عليه من تواريخهم تواريخ الأندلس».

ورتب تراجمه على حروف المعجم وابتدأها بالمحمدين ثم بالأحمدين تبركاً. وقد حقق بغية الوعاة الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم وقدم لها بمقدمة قيمة أفدنا منها كثيراً يستحسن الرجوع إليها.

obeikandl.com